# بقعة من حبر

## للقصصى الفرنسى رينه بازين

UNE TACHE D'EUCRE

Reué Bazui

## للأديب أحمد المحمود

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، هذا كل ما أستطيع أن أذكره عن الثلاث والعشرين سنة الأولى من سنى حياتى ، وبمجرد تعداد هذه الأرقام يكفى — باترى — لاظهار تشابهها المشترك وتوضيح وحدة اللون بينها .

مات أهلى ولم أعد الطفولة الأولى ، وإنى لأستحضر صورهم فى شىء من الجهد والمشقة ، وتكاد معالم البيت الذى شهد حبوى الأول تنمحى من ذاكرتى لولا أننى نشأت غير بعيد عنه أرنو اليه ويرنو إلى ، ولكن الدار بيعت وا أسفاه ! وغاضت حياتها أبد الدهر ، أجل بيع البيت فجرى عليه حكم القدر القاسى وفى هذا المكان اكتحلت عيناى بالنور ، وفى مدرسة البلدة تصرم ثمانية عشر عاماً من عمرى وقد اعتاد المدير أن يشرح لنا معنى المدرسة وانها عائلة ثانية لها قيمتها وأثرها فى النفس حتى خيل لنا أنها تفضل الأولى بمراحل كثيرة وتسمو عليها شرفاً وقدراً .

وما كدت أنهى دراستى الثانوية وأحمل شهادتها النهائية حتى بعث بى خالى إلى باريس لدراسة الحقوق والتثقف بالثقافة العالية وفى ثلاث سنوات نلت الاجازة التى مضى عليها ثمانية عشر شهراً وهى فى يدى ، ثم أقسمت يمين المهنة وغدوت — بهذه الصفة المكتسبة على حد تعبير خالى — محامياً متمرناً وكنت كل صباح اثنين أثبت وجودى فى المكتب مع زملاء آخرين وظهر لى بذلك انى حزت ثقة الأرملة واليتيم .

نلت اجازة الأدب — فى يسر ولباقة — بينما كنت أتابع دراستى الحقوقية ، وأنا الآن أوشك أن أغدو « دوكتورا » فى الحقوق ، ولقد كانت امتحاناتى حسنة فى الجملة ، ولكنها ليست فى الدرجة التى كنت أرجوها إذ قال لى أستاذى إن الذوق الأدبى عمل فيها عمله الشديد ، وطبيعة الحقوق — يا بنى — لاتمت — على عادة العلوم — إلى القلب والعاطفة بسبب من الاسباب » . أصحيح أن قلبى موزع بين الأدب والحقوق ؟ ذلك ما لا أعتقده ، ولكننى لن أعترف بهذا إلى أستاذى الذى لم ينس بعد أننى نلت أجازة فى الأدب . إنه يبنى على بعض الآمال ومن الطبيعى أن أبنى عليه — بدورى أنا — بعض الأمانى فى الفحوص المقبلة .

وماضى حياتى تختصره ورقتان نلتهما وثالثة تتراءى لى عن بعيد ، وأوشك أن أنالها ، ثم خال ذو ثروة كبرى . والى تاريخ ١٠ ديسمبر ١٨٨٤ لم يكن ثمت حادث يذكر ولكن من يستطيع أن يضمن جمود الحياة فلا تتطور ، وهذا حادث خطير جرى لى بعد ظهر هذا اليوم فأثر فى نفسى أثره العميق وهاج من خواطرى كلما أمعنت التفكير فيه والتحليل له والوقوف عنده .

كثيراً ما كنت أذهب إلى دار « المكتبة الأهلية » للعمل فى صالة المخطوطات الخاصة التى تضم بين جدرها الطبقة المشهورة من الكتاب والعلماء المرخص لهم بالعمل فيها ، وكنت فى كل مرة ألج باب هذه الصالة أحس بشعور الغبطة والكبرياء لوجودى فى مكان لا يقبل إلا من كان على جانب من الشهرة وذيوع الاسم . وأتخطى برهبة سدة الحارس الذى اتخذ مكانه إلى رتاج الباب يستقبل الزائرين القدماء ببسمة لا تخرجه عن وقاره وهيبته عند ما يمرون به إلى مقاعدهم . ولم تكن بينى وبينه هذه المعرفة الزمنية حتى يجود على بابتسامة ، ولكنه على كل حال كان يستقبلنى بانحناءة قصيرة من رأسه وقد اعتاد أن يرانى كل يوم فلا يطلب منى البطاقة كما كان يطلبها من الزائرين الجدد وفهمت أننى أصبحت فرداً من أفراد العائلة فما على إلا أن أجوس خلال البيت بأمن وسلام .

ها أنذا فى هذه الصالة الفخمة أسرح البصر فى اتساعها وجدرها المزينة التى تشبه فى أصباغها الجميلة الألواح الفنية الرائعة فتمتع

فى النفس شعور الاجلال والتعظيم . وعلق بصرى بما يشبه المنبر فتبينت أن هذا المكان يجلس فيه النفر المختار من رواد هذه الدار الذين يتمتعون بألقاب العلم وأوسمة الأندية الأدبية . وينتثر إلى جانبي هذا الممر على صورة أصبحت عادية سكان المكتبة العلماء، ومن يتأملهم مقوسى الظهور مطرقى الرؤوس حادبين على كتبهم يفترسونها بصمت وسكون رهيبين يتعظم فى نفسه تأثير الفكرة فى العقل البشرى ومبلغ اجتياحها فى رؤوس هؤلاء التى قلت شعورها ، ومع ذلك فان هذا الجمع من القرعان كان لايعدم بعض من برقت شعورهم

وغالبا ما ينقطع بعض هؤلاء العلماء القراء ـ عند ما أمر ـ عن القراءة فيشخصون إلى بعيد « تائهة » بلهاء لاتميزنى جليا لاغراقها فى القراءة والتفهم ، ولكن هذه الابصار كانت تنحسر عنى عندما تلح تقطيب وجهى فتنصب العيون وتعود إلى ما كانت عليه وهى أشد ما تكون نشاطا وشوقا وندما على أن أضاعت الوقت فى تفحص هذا الآتى الغريب . ولكننى كنت أحس بخواطر هؤلاء وبما هم دائبون فيه . هذا يبتدر رفيقه بأنه يدرس منشأ الصناعات والحرف وأصولها ، وذاك عاكف على دراسة عصر لويس الثانى عشر، وآخر يهمس فى أذن رفيقه : أنا أدرس أحوال المرأة المدنية فى عصر طيباريوس ، ويسرع آخر إلى شده الجمع بانه يبحث عن ترجمة جديدة لهوراس . وشعرت بان جميع من فى هـذا المكان يبتدرنى بالسؤال : وأنت أيها الحدث ماذا جئت تفعل هنا ؟ ألا لا تعكر صفاء هذا المكان الوقور

ماذا جئت أفعل هنا ؟ ! وا أسفاه ! . . . يا سادة . . . وهل أنا فى حاجة إلى أن أقول لكم إن خالى ما فتىء يستحثنى ويلحف على فى انهاء أطروحة الدكتوراه ويضطرنى إلى العودة إلى الريف ويبدى سأمه من بطىء الوضع والتأليف، وهاهوذا صراخه فى كتبه إلى : « أقلل من النظريات يابنى ؟ . . . أسرع الى العمل ودع عالم الخيالات والاحلام وما الذى أهاب بك إلى انتقاء هذا الموضوع دون سواه ؟ . . » والواقع أن موضوع « اطروحتى الرومانية » انتقى خصيصا لتمديد إقامتى فى باريس. «لاتين جونيوس» هذا موضوع اطروحتى ـ أيها السادة القراء ـ وانه لموضوع طريف كما ترون ولكنه صعب عسر التوضيح ، وليس بينه وبين الحياة العملية أقل صلة أو علاقة وهو يسبب لى تعبا كثيرا ونصباً جما ، وياليتكم تتصورون بعض ما أقاسيه من مشاق الدرس والمراجعات والمطالعات

ومن الصدق والواجب أن أقول إننى كثيراً ما أمزج مع هذه المشاق بعض القراءات المسلية الجذابة وأرود أمكنة المعارض والملاهى وان خالى يجهل من أمرى كل شىء إلا أننى مدمن للكتب والموسوعات ومغرق فى استنطاق أسطرها ومتونها وهوامشها وان خالى ليعجب كثيراً بابن أخته الناشىء ، هذا الراهب الناسك « البندكتى » الذى لا يفارق دور العلم وأروقة « المكتبة الأهلية» فى باريس ، بابل الحديثة ـ كما يسميها ـ مفنياً لياليه وأيامه مع « غايوس » مستصحباً « لاتنيه » غير عابىء بكل ما لا يمت إلى هؤلاء بصلة . وأنا أحرص كثيراً على حسن ظنه بى فأرسل له دائما بطاقات الانتساب للمكاتب ودور العلم موقعة من قيمها ومحافظيها وهو دائما يحتفظ بها حتى يتوفر لديه منها صندوق . ولقد وصلت هذا الصباح ناشطا أكثر منى فى بقية الأصباح وكأن سوء الطالع كان يرافقنى للقضاء على هذا النشاط المنبعث من قرارة نفسى فسبب لى بلية ما كان أشغلنى عنها وأغناني ! . .

تنتصب إلى جانبي سدة قيم المكتبة اريكتان تحملان أوراق الطلب وأقلام الكتابة وقادتنى خطاى إلى الأريكة اليمنى وياليتنى لم أقصدها، اذن لكنت فى نجوة عما أنا فيه الآن من أسف وندامة. أخذت الريشة المتصلة بسلسلة نحاسية وخططت بغير وضوح كثير اسم الكتاب والمؤلف الذى أتوخى مطالعته وأعدت الريشة إلى مكانها، ولكن ما أدرى والله كيف أركزتها ولعلها فقدت اتزانها فاضطربت وتدحرجت السلسلة والريشة وانى لأسمع صوتها . . . لقد ارتجفت وندت نقطة حبر كبيرة . . . على . . . على كتاب أثرى . . . أمام أحد الأعلام الشيوخ ! . . وإن كنت أذكر لا أذكر إلا انتصاب هذا الانسان الأبيض الهزيل فى ظلام مقعده صارخا :

ـ يا للغباوة ! . . لقد لوثت الكتاب الأثرى !

وملت إلى المقعد أتفحص فعلتى التاعسة فوجدت أن نقطة الحبر السوداء القاتمة قد استقرت على غلاف الكتاب إلى جانب اسمه المذهب ، وهاهى ذى تتفرطح فتتشعب إلى مايشبه المغزل والسنان وأشكال مختلفة ، وهنا وهناك انتثرت نقاط صغيرة وتوزعت على صفحته كما تنتثر النجوم فى السماء . وإذا ببعض الخطوط تتجمع فتشكل أخدوداً ينحدر فيه الحبر إلى أسفل الصفحة . وتطلعت فاذا أنا محاط بهالة من القراء وكلهم ينظر إلى بعينين متفحصتين فجمدت عروقى وسمرت فى مكانى لانتظار الفضيحة وتمتمت بكلمات اعتذار وأسف كانت لاترد على مافات . وأما قارىء الكتاب فلم ينبس ببنت شفة وكأنه قد فقد الحركة وكنا ننظر سوية إلى تشكل البقعة ونرود بأعيننا خطوط جريانها وانبثاقها على الصفحة وكأنه قد عاد إلى مداركه بعد استقرار البقعة واستكمال

الملاحظة فاهتز اهتزازة محمومة وتناول من جيبه ورقة نشاف وشرع يمتص برجفة عصبية لطوخ الحبر ويعالجها بدقة الممرضة تضمد جراحا . واهتبلت الفرصة لا تقهقر إلى الصف الثالث من المقاعد حيث وضع لى غلام المكتبة الكتب التى طلبتها . وجلست أحمل نفسى على الاعتقاد بأنى لو لم أفه بشىء ولو أننى أتوارى عن الأنظار أو أن أخبىء رأسى بين يدى كرجل أثقلته جسامة المسؤولية إذن لكفيت هذا الغضب وهذا الصخب ولكن الامر لم يكن ليتوقف عند هذا الحد . وفوقت البصر قليلا أسترق تتمة المشهد فاذا أبصر هذا الانسان الابيض الصغير الذى كان واقفا الى جانب القيم يكثر من الحركات بيديه قد أصبح بين يدى وكان تارة يشير بسبابته إلى الكتاب الملوث وطورا إلى متجها نصف اتجاه ، وحزرت دون ما تعب أو مشقة أنه يقصدنى بالكلمات الخشنة التى كان يذروها ، وقد بدا لى بنظرة خاطفة أن قيم المكتبة أشفق على من كلمات هذا الشيخ الذرب ، فاحمر وجهى خجلا وأحسست بالخجل يسير فى كل جسمى

وهاهم أولاء يتصفحون دفتر اوأظنه البيان الذى يشير إلى قيمة الكتاب وثمنه ومكان الابتياع وانهم ليتآمرون على إفراغ المكان منى وتحديد الجزاء والغرامة ! .. أواه ! .. يا خال تأهب لتحملها !

إلى هنا استرسلت فى أفكارى المحزنة وما رجعت إلى نفسى إلا وشعرت بأن يداً تربت على كتفى دون أن أحس بدنو صاحبها، قال:

— إن المحافظ يطلبك إليه

فنهضت أتائر الغلام وما إن حاذيت القارىء الرهيب الذى كان قد استقر به مكانه حتى لمست بعضى فى الوصول إلى سدة القيم الذى بدرنى :

— أو أنت الذى لوثت هذا الكتاب ؟ . .

— نعم ياسيدى

— . . . إنك لم تتعمد فعلتك هذه ؟

— طبعا لا ، وأنا آسف لوقوع الحادث يا سيدى

— أنت على حق فى ندمك وعلى صواب ، لأن هذا الكتاب من أندر الكتب الاثرية الموجودة ، والبقعة أيضا من اغرب البقع ولا أعتقد أنى رأيت بقعة على هذا الشكل .

وأحسست بانى ساقول له إن الانسان يلوث كما يشاء ، لولا أننى أمسكت نفسى ، فقال لى :

— اكتب اسمك وصنعتك ومكان إقامتك ؟

فكتبت ما يلى :

« فابيان جان جاك موبارد محامى ، ٩١ ، شارع رن

— هذا كل شىء ؟ . . .

— نعم هذا كل شىء مؤقتا ولكننى أعلمك بان « مسيو شارنو » مفيظ جداً ومن المناسب والمستحسن أن تعتذر له عن الخطيئة التى اقترفتها .

— مسيو شارنو ! ؟ . .

— نعم المسيو شارنو عضو المؤسسة العلمية الذى كان يقرأ الكتاب الاثرى .

وتساءلت فى نفسى عن هذا القارىء الخطير . . . يا الهى ! . . أيكون المسيو شارنو هذا الذى تكلم لى عنه المسيو فلامارون رئيس لجنة التدقيق فى اطروحتى ؟ انهما زميلان إذن أحدهما عضو مجمع العلوم السياسية والمعنوية والثانى عضو معهد دراسة النقوش والفنون الجميلة .

شارنو ! . . شارنو ! . . أجل ولا يزال جرس هذه الكلمة يطن فى أذنى ولاسيما فى المرة الاخيرة عند ما قال لى استاذى : انه ( أى شارنو ) صديق الحميم من معهد الفنون والآثار . وأحسست بأن خطراً يتهددنى فى شهادتى وامتحاناتى ونزلت إلى أعماق نفسى اتحسس غوامضها فاذا بى فى مأزق حرج ما أهتدى إلى الخروج منه ، وان الخوف يتسرب إلى من جهتين اثنتين :

أولا — لا أعلم ماذا ينتظرنى من الجزاء والعقوبة للكلمة التى فاه بها القيم عند ما استكتبنى اسمى وكنيتى . وثانياً — أخشى ان يفسد على هذا العالم « شارنو » عطف استاذى فلامارون لانتهاكى حرمة الكتاب الذى كان يقرأه ، هذا إذا كان نزقا غضوبا كما ظهر لى عند وقوع الحادث المشئوم .

وهل يجب أن أعتذر للمسيو شرنو ؟ وأى الأعذار أقدمها له ؟ وهل أنا لوثته حتى أسرع إلى الاعتذار؟ أم ان هذا من حق الكتاب الذى احتمل اعتدائى ؟ ان المسيو سالم مما لحق بالكتاب وليس على قميصه أو أثوابه شىء من الحبر أو اللطوخ، فلماذا اذن يأخذنى بهذه الحدة وهذا الغضب ؟ . . ولكننى سأقول له :

— سيدى أنا آسف جداً لأننى عكرت عليك الصفو فى أبحاثك العلمية . ان كلمة أبحاثك العلمية ستتملق ولاريب أثرته واحساسه وستكون مخدراً قويا لأعصابه المتوترة . . .

واستجمعت نفسى للنهوض واذا بالمسيو شارنو يقبل بهزة عصبية وبغضب مازال يشتد منذ وقوع الحادثة وترتسم على وجهه أمائر الاستياء الشديد من تقلص فى الشفاه إلى سهوم فى الوجه والنظر وكان يتأبط محفظته وذراعه تضطرب فى امساكها الى خاصرته . وحدجنى بنظرة قاسية . . . وتابع خطاه .

حسنا يا مسيو شارنو ! . . إن رجلا غاضبا فى حالتك التى أشهد لا يمكنه استساغة المعاذير ولكننى سأعتذر لك فيما لو تقابلنا اذا كان للايام أن تضعنا وجها لوجه . . .

( طرطوس ) احمد المحمود